Studies in Spirituality - Weekly Torah Portions by Rabbi Lord Jonathan Sacks zt"l

في رِحاب التّوراة

دِراساتٌ وحِواراتٌ روحانيّة مُعمّقة في النّصوصِ التّوراتيّة الأسبوعيّة مع الحاخام جوناثان ساكس

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

Bar-Ilan University
DANGOOR EDUCATION

The Original text in English and translations to other languages can be found here:
<u>Covenant & Conversation | Balak | What Makes God Laugh | The Rabbi Sacks Legacy</u>

"بَلاق" هو النصُّ الأسبوعي السابع من كِتاب "بَمِدبار" (أي سِفر العدد). يبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين ويَنتهي بِالآية التاسعة من المقطع الخامس والعشرين.

ما الذي يُضحِكُ اللهَ عزَّ وجَلّ؟

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

هنالِكَ مقولة قديمة تقول بأن الله يَضحَكُ عندما يرانا ونحن نُخطِّط للمُستقبل[1]. في الوقت نفسه، إن كان التناخُ* هو مُرشدنا ودليلنا فإن ما يُضحكُ الله عزّ وجلّ فِعلاً هو الأوهام البشرية بالعَظَمة. فمن منظورٍ إلهي، أي من أعالي السماوات، فإن قمة السخافة تكمنُ في اعتقادِ البشر بأنهم آلهة، وهنالك عدد من الأمثلة في التوراة على هذا الأمر، وأحدُ أهمها هو عِندما تجَمّع عدد من الرجال في منطقة شنعار للتخطيط من أجل بناء مدينة فيها برجُ بابل، تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع الحادي عشر من سفر التكوين والتي تقول: **"هلُمّ نبني لأنفسنا بُرجاً رأسه في السّماء"**. وهنالك عدد من الآثار التاريخية التي تُثبت بناءهُم فِعلاً لهذا البُرج، إذ يوجدُ عدد من الأبراج التي بُنيَت في بلاد ما بين النهرين (هذه الأبراج التي تعرف باسم زقورة) بما فيها معبد مَردوخ في بابل والتي وُجِد فيها أحافير تدّعي وصولَ تلك الأبراج والأهرامات إلى السماء.[2]

وكانَت الفِكرة السائدة حينها بأن البُنيان المُرتفع - أو كما سُميت بالجبال بشريّة الصُّنع - ستسمحُ للبشر بالقفز إلى المكان الذي تتواجدُ فيه الآلهة لأنهم كانوا يطمَحون للوجود بقربها والتواصل معها، فكانَت الأقاليمُ التي بُنيت في بلاد ما بين النهرين من بين أوائل المواقع التي عرفتها الحضارات البشرية التي تحاول تنفيذ هذه الفكرة، فشكّلَت بذلكَ نقطة تحوّل مهولة في تاريخ الحياة البشرية على وجه الأرض.

---

*__مُلاحظة توضيحية من المترجم: التَّناخ__ هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نڤيئيم، كتوڤيم"(أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهوديّ المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخُروج وسِفر اللاويين وسِفر العدد وسِفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سِفر يوشَع، وسِفر القُضاة وسِفر صموئيل الأول والثاني وسِفر المُلوك الأول والثاني وسِفر إشعياء وسِفر إرميا وسِفر حزقيال، وسِفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغيوغرافيا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سِفر المزامير، وسِفر الأمثال، وسِفر أيوب، وسِفر روث (راعوث)، وسِفر نشيد الإنشاد، وسِفر الجامِعة، وسِفرُ مراثي إرميا، وسِفر أستير، وسِفر دانيال، وسِفر عِزرا ونحميا، والجُزء الأخير من التَّناخ يضم أسفارِ تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سِفراً (كتاباً).

وقبل أن يكون هنالِك زراعة كانَ البشرُ يعيشون في حالة خوفٍ دائمٍ من الطبيعة، فكانوا يخافون من الحيوانات المُفترسة وغيرها من الكائنات والجماعات بالإضافة إلى خوفهم الشديد من تقلّبات الجو البارد والحار والجفاف وإيجاد الطعام من عدمه، نظراً لأن مصيرهم كان مُرتبطاً بعوامل خارجة عن سيطرتهم.

وبعد انتشار الحيوانات الأليفة والقابلةِ للترويض بالإضافة إلى بدء ظهور مرحلة الزراعة، حينها فقط بدأ البشرُ يتجمعون في تجمعات سكانية كالقُرى والبلدات، ولاحِقاً في المُدُن ثم الإمبراطوريات، بالتالي كانت تلك المرحلة بمثابة المرحلة التي أعادت حالة التوازن بين الطبيعة والثقافة البشرية، ولأول مرة في التاريخ أصبح البشرُ غير مُجبَرين على التكيّفِ مع البيئة المُحيطة بهم، بل أصبح بإمكانهم تكييف البيئة لتُناسِبَهُم. وفي هذه المرحلة بدأ البشرُ - خاصة الحُكّام والزعماء - ينظرون إلى أنفسهم على أنهم آلهة أو أشباهُ آلهة على الأرض، أو ربّما بشرٌ يتمتعون بسُلطة من شأنها التأثيرُ على الإله.

وخيرُ دليلٍ على هذا الأمرِ هو البناءُ استناداً إلى مقاييس مَهولة: فأهرامُ بابل وغيرها من الأقاليم التي بنتها حضارةُ ما بين النهرين وأهرام مصرَ جميعها تبيّن حقيقة ذلك، فقد بُنيت على أرض مستوية بين نهري دجلة والفرات وعلى ضفاف نهر النيل، ثم بدأ البِناءُ يرتفعُ بشكلٍ شاهقٍ ليعلو أكثر وأكثر عن مُستوى مُحيطه. وحتى الهرمُ الكبير في منطقة الجيزة في مصر – والذي بُني قبل وِلادة أفْرهام/إبراهيم – كان ضخماً وشاهق الارتفاع لدرجة أنه صُنِّفَ كأعلى بِناء صنعته البشرية على كوكب الأرض على مدى أربعة آلاف سنة.

بالتالي فإن توجّه البشر لمحاولة بِناء "جِبالٍ اصطناعية" تُبنى بأيدٍ بشرية هو أمرٌ جعل من قاموا بالبناء يشعرون بأنهم اكتسبوا بعض القوى الإلهية، وبأنهم بَنوا درجاً يقودُ إلى السماوات. لكن الآية التوراتية الخامسة من المقطع الحادي عشر من سفر التكوين تقول الآتي فيما يتعلّق ببناء البرج (المجدل): "**فأوردَ** اللهُ أمراً مؤجِّلاً، ليَنظُرَ القريةَ والمَجدلَ الذي أخذَ بَنو آدمَ في بنائها".

توضِّحُ هذه الآية بأن الله كان يضحكُ ساخراً مما حدث، فالبشرُ على وجه الأرض كانوا يعتقدون بأنهم قد وصلوا فِعلاً إلى حدود السماء، لكن من منظور الله عزّ وجلّ كانت تلك الأبنية مُتناهية في الصِّغَر لدرجة أنه كان يتنزّلُ إلى الأرض حتى يراها من شدّة صغرها. وقد أدركنا مدى صغر حجم هذه الأبنية - مهما بلغ ارتفاعها - عِندما تمكّن الإنسان من الطيران وصار بإمكانه النظرُ إليها من ارتفاع يصل إلى ثلاثين ألف قدمٍ عن مستوى سطح الأرض.

وحتى يُنهيَ اللهُ عزّ وجلّ حالة العِناد التي تملكّت البشر حينها، "**شَتَّتَ (بَلْبَلَ) اللهُ لُغَةَ أهل الأرض**" تبعاً لما تذكره الآية التاسعة من المقطع والسفر نفسه، فلم يعد بمقدور أحدهم أن يفهمَ الآخر لاختلاف اللغات بينهم، بالتالي تحوّل مشروع الوصول إلى الآلهة عبر البناء الشاهق إلى حالة أشبه بالكوميديا الفرنسية. وربّما يمكننا تصوّرُ هذا الموقف عن طريق تخيّل مُراقبٍ للعمال يطلبُ من العامل أن يناوله طوبة، وبدلاً من ذلك يُناوله المطرقة! أو حينما يقول للعامل أن يذهب يميناً فيذهبُ العاملُ يساراً. بالتالي فشل هذا المشروع بأكمله بسبب عدم إمكانية التفاهم أو التواصل فيما بينهم، فكانوا يعتقدون أن بإمكانهم الصعود والوصول إلى السماوات في حين لم يكُن بمقدور أحدهم أن يفهَم ما يريدهُ الشخصُ الواقف بجانبه.

ومن هذه النقطة صار البرُج الذي لم يُستكمَل بناؤه بمثابة رمزٍ لحتمية فشلِ الطموحات التي يُحرّكها الغرور، فقد نفّذَ عُمالُ البناء حينها ما كانوا يطمحون لبنائه، لكن ليسَ بالطريقة التي كانوا يريدونها، لأنهم كانوا يطمحون أن "**يصنَعوا لأنفسهم اسماً**" تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من نفس المَقطع ونفس السِّفر. وقد نجحوا في ذلك فعلاً، لكن بدلاً من أن يسطَعَ نجمهم باعتبارهم أول بشر نجحوا في الوصول إلى السماء، اختفى نجمُ بابل وتحوّل إلى مُجرد هذيان لا قيمة له ورمزاً للبلبلة، بمَعنى آخر، تحوّلت الغطرسةُ والعجرفةُ إلى نقمة.

أما المثال الثاني على هذا الأمر فكان في مصر خلال الحقبة التي ضربَ الله عز وجل فيها مصرَ بالآفات، وحينها حوّلَ موشيه/موسى وشقيقه أهارون/هارون نهرَ النيل إلى دماء، وملأوا أرض مصر بالضفادع. وتبعاً لما يذكره النص التوراتي فإن سَحَرة الفراعنة قاموا بالشيء نفسه حتى يُثبِتوا أنهم يتمتعون بالقوى الخارقة نفسها، كما كان همّهُم الأول والأخير هو أن يُظهِروا للجميع بأن بإمكانهم القيام بما يقومُ به العبرانيّون. بالتالي لم يكونوا يُدركون بأنهم يجعلون الأمور تزداد سوءاً بدلاً

من أن يجعلوها تتجه نحو الأفضل، لأن القُدرة الحقيقية تعني أن يُعيدوا الدماء إلى سابق عهدها كما كانت في السابق، أي ماءً في النيل، وأن يجعلوا الضفادع تختفي بدلاً من أن يجعلوها تنتشر أكثر وأكثر.

لهذا نسمعُ الضِحكة الإلهية عندما حلّت الآفة الثالثة على وجه الخصوص، أي عِندما تفشّى القملُ بينهم. ففي المرة الأولى فشل السَّحَرةُ في تقليد تلك الآفة، فتجرّعوا كأس الهزيمة وتوجّهوا إلى فِرعون قائلين: "إنها يدُ الله!".

والجُزءُ المُضحِك في الموضوع هو أن رمزَ القوّة بالنسبة للفراعنة كان البناء الشاهِق الذي تمثّل في الأهرام والمعابد والقِلاع والتماثيل التي بنوها بكثافة آنذاك، فأراهم الله عزوجلّ قُوّته وجبروت عظمته من خلال أصغرِ الحشراتِ حجماً، فهي حشرة رغم عدم رؤيتها بالعين المجردة أحياناً إلا أن تأثيرها مؤلمٌ جداً. بالتالي تحوّلت العجرفةُ إلى نِقمة على أصحابها مرة أُخرى. ومن كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم صِغارٌ كانوا فعلياً الكبارَ في عين موشيه، وأما من كانوا يتواضعون أمامه فكانوا في الحقيقة همُ العُظماء.

في الوقت نفسه، فإن ما حدثَ يُفسِّرُ خلافَ ما كانت عليه قِصّة بلعام والحمارة المُتكلّمة، وهي بالمناسبة ليسَت قِصة من وحي الخيال، كما أنها ليست مُعجزة أيضاً، لكن ذاع صيتها بسبب نظرة المؤابيين وقوم مَدين لبلعام، ولربّما إلى حدٍ معين بسبب الطريقة التي كان ينظرُ بها لنفسه. وتبدأ القِصّة حين قام بَلاق ملكُ مؤاب وقادةُ مُدينَ بإرسال وفدٍ إلى بلعام طالبين منهُ أن يُنزل اللعنةَ على بني يسرائيل، تِبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع الثاني والعشرين من سِفر العدد والتي تقول: **"والآن فتَعالَ العَنهُ لي، إذ هُم أعظمُ مني، فلعلّي أستطيعُ أن أحاربه واطردهُ من البَلد، لأني أعلمُ أن من تبارِكهُ مُبارَكٌ، ومن تَلعنهُ يُلعَنُ"**.

وقد كان هذا الطلبُ مبنياً على فهمٍ وثنيّ لقداسةِ رِجال الدين، فكانوا يظنونهُ حكيماً يُداوي الأمراض وساحِراً وصانِعاً للمعجزات وشخصاً قادراً على التحكّم بالقوى الخارقة للطبيعة، في حين أن التوراة تنظرُ إليه نظرة مُختلفة تماماً، لأن الله عزّ وجل هو الذي يُباركُ ويلعنُ، وليس البشر، وذلك مصداقاً لما تُخبرنا به الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين والتي تقول في مستهل حديث الله مع أفْرهام: **"وأبارِكُ مُباركيك، وألعَنُ لاعِنيك"**، وهو الأمر ذاته الذي تؤكد عليه الآية السابعة والعِشرون من المقطع السادس من سفر العدد حيث تقول: **"فَيَجعَلونَ اسمي على بني يسرائيل، وأنا أُبارِكهم"**. ومُجردُ التفكير بتشغيل رجل الدين حتى يلعنَ أحداً يهيئُ الأمر للافتراض بأن اللهَ عزّ وجلّ يقبلُ الرشوة!

لكن تظلّ هذه القصة مُحيرة إلى حدٍ ما، فالله عزّ وجلّ يطلبُ من بلعام ألا يذهب، والمَلِك بَلاق يبعثُ وفداً مرة أُخرى حاملاً معه عرضاً أكثر إغراءً من العرضِ السابق، فيطلبُ الله عزّ وجلّ من بلعام أن يذهبَ معهم وأن يقولَ لهم الكلام الذي يأمرهُ به فقط. وفي صباح اليوم التالي يستعدّ بلعام للذهاب مع وفدِ المؤابيين، لكن النصّ يوضِّحُ لنا بأن الله كان "غاضِباً" جداً بسبب ذهابه معهم (تبعاً لما تذكره الآية الثانية والعشرون من المقطع الثاني والعشرين من سفر العدد). وهُنا يظهر دور الحمارة المُتكلّمة في هذه القصة، حيثُ ترى الحِمارة ملاكاً يعترضُ طريقها، فتتوجّه صوب أحد الحقول لكن بلعام يضربها ويُجبرها على العودة إلى الطريق. لكن الملاك ظلَّ يعترضُ طريق الحمارة، فتصطدمُ بالحائطِ مما أدى إلى إصابة قدَمِ بلعام، فيقوم بضربها مرةً أُخرى، لكنها تقفُ مكانها هذه المرة رافضة المسير، وهذه هي اللحظة التي تبدأ فيها الحمارة بالكلام، ثم ينظرُ بلعام إلى الأعلى فيرى ملاكاً لم يكن قادراً على رؤيته من قبل. والسؤال الذي يطرحُ نفسه هُنا: لماذا يطلبُ الله عز وجل من بلعام **ألا يذهب**، ثم **يأمره بالذهاب**، وعِندما يذهبُ يشعرُ بالغضب نتيجة ذلك؟

مما لا شكّ فيه بأن الله عزّ وجلّ قادرٌ على قراءة ما يجول في خاطر بلعام، بالتالي كان على دراية تامة بأن بلعام أرادَ فِعلاً إنزال اللعنة ببني يسرائيل. ونحنُ نعلم ذلك لأن بلعام ألحقَ الأذى ببني يسرائيل بعد مُحاولته الأولى لإنزال اللعنة بهم، حيثُ نصحَ أهلَ مَدين بأن يستخدموا نساءهم لإغواء بني يسرائيل حتى يضِلّوا عن الطريق، الأمر الذي من شأنه أن يجلبَ غضبَ الله عزّ وجلّ عليهم (تبعاً لما تُخبرنا به الآية السادسة عشر من المقطع الحادي والثلاثين من سفر العدد). بمَعنى آخر، لم يكُن بلعام أبداً صَديقاً لبني يسرائيل.

لكن قصّة الحمارة المُتكلمة هي مثالٌ آخر على المواقف التي تُضحِكُ الله عزّ وجلّ، فهي قِصة لرجل امتلك سُمعة بأنه يمتلكُ قوىً خارقة للطبيعة، فكان الناس يعتقدون بأنه قادرٌ على أن يُبارك البشرَ ويلعنهم إذا شاء. لكن تُخبرنا القصة التوراتية بأمر مُختلفٍ تماماً، وهو أن الله من خلال ما حدث قد أرسل رسالتين مُختلفتين إحداهما للمؤابيين وأهل مَدين

والثانية لبلعام نفسه، حيث أظهر للمؤابيين وأهل مَديَن بأن بني يسرائيل هُم قومٌ مُبارَكون لا ملعونون، وكلّما حاولتم أن تلعنوهم كلّما أصبحوا مُبارَكين أكثر وأكثر، بل وستُصبحون أنتم الملعونين، وهذه حقيقة راسخة في يومنا الحاليّ تماماً كما كانت في السابق، إذ لطالما وجدت الكثير من الحركات حول العالم والتي تُحاول أن تلعن دولة يسرائيل وشعبها، لكن كلّما زاد الشرُّ في قلوب أعداء بني يسرائيل، كلّما زادَت عظمةُ وقوّة يسرائيل دولةً وشعباً، وكلّما زادوا من شرّهم كلّما جلبوا لأنفسهم الهلاك والدمار.

كما كانت هنالِك رسالة شديدة اللهجة أرادَ أن يوجِّهها الله عزّ وجلّ لبلعام نفسه، رسالة مفادها التالي: إن كنتَ تظنّ أنك قادرٌ على التحكّم بالله عزّ وجلّ فإن الله سيُريكَ كيف يُحوِّلُ حِمارةً إلى نبيّة ونبياً إلى حِمار، فحمارتكُ سترى الملاك الذي تعجزُ أنت نفسك عن رؤيته، لهذا كان بلعام مُجبراً على الاعتراف بهذه الحقيقة قائلاً: **"كيف ألعنُ من لم يلعنهُ الله؟ وكيف أشتم من لم يشُتمهُ الله؟"** تبعاً لما تذكره الآية الثامنة من المقطع الثالث والعشرين من سفر العدد.

بالتالي تتحوّلُ العجرفةُ دائماً إلى نقمةٍ في عالمٍ ينشغلُ قادته بأعمال لا نهائية تسعى لتضخيم صورتِهم ومكانتهم. في الوقت نفسه يوجدُ لبني يسرائيل كتابٌ ديني مُقدّسٌ ساهم بشكلٍ كبيرٍ في نجاحهم ونسب هذه النجاحات إلى الله عز وجل، وكامل فشلهم إلى أنفسهم فقط، الأمر الذي لم يُضعِفهم أبداً، بل جعل منهم قوّة استثنائية لا يُستهان بها.

ومن هذا المنطلق فإن الأمر ذاته ينطبق علينا على المستوى الفردي، وهُنا أستذكر مرة أخرى قِصة لصديقٍ عزيزٍ فارقَ الحياة قبل فترة، وقيلَ عنه بأنهُ "كان يصبّ تركيزه على الله عز وجل لدرجة أنه نسي نفسه تماماً". أما عَبَدةُ الأوثان من أمثال بلعام فلا زالوا يرفضون تعلم الدرس الذي يجبُ علينا جميعاً تعلمه: وهو أن ما يجب يكون محور اهتمامنا فعلاً ليس أن يفعلَ الله ما نريده نحن، بل أن نفعل ما يريدهُ الله عزّ وجلّ منّا. لهذا يضحكُ الله ساخراً من أولئك الذين يعتقدون بأنهم أشباه آلهة ويمتلكون قوة الإله وسلطته، والعكسُ صحيح أيضاً: لأننا كلما تواضعنا كلما ازددنا عظمة.

---

1. المصدر: The John Lennon version is: "Life is what happens while you are making other plans."

2. يوصف برج بابل في قصة الخلق البابلية بكلمة "إيساكيلا"، والتي تعني منزلاً برأسٍ مرفوعٍ. وقد قام كل من الملكين نبوخذ نصّر ونبوبولصّر بإعادة ترميم هذا البرج، وهناك مخطوطات توضح لنا بأنهما كانا يحاولان "رفعَ قمة البرج" قدر المستطاع حتى يصلا إلى السماوات.
(Nahum Sarna, *Understanding Genesis* 73 ,(New York: Schocken Books, 1970)

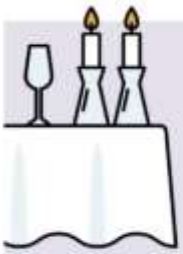

حَولَ مائِدةِ يومِ السّبتِ المُقَدَّسِ: أَسئِلةٌ لِلتَّأمُلِ

1- برأيك لماذا أصبح بلعام متغطرساً لدرجة صار يعتقد فيها بأنه يمتلك القوى الإلهية لله عز وجل؟
2- برأيك لماذا اختار الله عزّ وجلّ الحمارة كرسول يُعلّم بلعام درساً مهماً؟
3- ما هو الدرس الذي ينبغي علينا ان نتعلمه من خلال هذه القصة؟

● These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at **https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/balak/what-makes-god-laugh/**

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism*, *Bar Ilan University*